واقتربنا اخيرا من الميدان .

لم يكن الطريق طويلا ولكنا تعبنا . كنا نحس اننا نكتب بخطواتنا القصيرة البخيلة فقرات حزينة من قصة لم تمر بحياة اسرتنا الصغيرة من قبل .

وكانت قلوبنا ترتشف قطرات من أسى طفيف ... كانت تزداد وتنهمر كلما اقتربنا خطوة اخرى من الميدان .

فقد كنا ذاهبين لتوديع اخي.

أخيرا آن الاوان . منذ سنوات وابي العجوز يتطلع الى مثل هـذا اليوم عندما يستطيع ان يزيح من فوق كاهله مسئولية واحد منا . فكم كان الحمل ثقيلا عليه .

ومنذ شهر اعلنت نتيجة امتحان اخي وحدثت المعجزة . لقد نجـح حسين واصبح مهندسا . وفي ذلك اليوم جاء بعض الجيران وقد علموا بالنبأ ليهنئوا امي.. وسمعت كلمات ثرثارة تتردد في البيت تفيـض بالامل والتمني ... ورجاء الحظ السعيد .

وعاش بيتنا الصغير يوم اعلان النتيجة ساعات سعيدة . كم سـمعت ابي يرفع يده الى السماء شاكرا لانها حققت له اجمل امل بالنسبـة لابنائه .. وكم شاركته امي بنظراتها الورعة في صلاة تفيـض بالامتنان لله .

وعندما اغلقت امي الباب تلك الليلة وراء آخر المهنئين من الاقارب والجيران تنفست الصعداء .. وتعجبنا عندما رأينا دموعا صامتة تشرق في عينيها . ولكنها اسرعت وتداركت الموقف ومسحت دموعهـا... وجلست الى ابي تبحث معه امورا تتعلق بالمستقبل ... وعرفت من لهجتها المتحمسة ان الصبر الذي طلى وجهها في السنوات الاخيرة قد افرج الان في اعماقهـا رغبة متقدة ... تفور وتغلي بالامنيات المشرقة لابنائها ... امنيات تمحو صدأ تلك الايام التي ذاقت فيها قافلتهـا الصغيرة كثيرا من المتاعب والوان الحرمان .

كانت تنفعل بحماس وهي تحدث ابي بشان الوظيفة التي يجب ان يشغلها ابنها المهندس وكان ابي اكثر منها اتزانا في احلامه وهو يخبرهـا انه سيتصل منذ الغد بكل معارفه القدماء في المصلحة ... ومن بينـهم منصور وعبد الرازق افندي .. وانه سيعمل كل ما يستطيع ليجد لاخي وظيفة مناسبة في القاهرة . وان ليس هناك داع لحمل الهم ... فهناك ازمة مهندسين في البلدان ... ولا بد ان سيحصل على الوظيفـة المطلوبة .

اما امي فكانت ترى انه من الافضل ان تذهب هي في الصباح الـى زوج اختها رفعت بك وهو قادر على حل هذه المشكلة التي لا شك سيلوص فيها رغم بساطتها كل معارف ابي وزملائه « اللي على قد حالهم » .

ولم ير ابي حكمة في ان يعارضها ... ويقول لها ان توفر مجهودها... لانه يعرف مقدما ان رفعت بك لن يحرك ساكنا كعادته ... وخاصة اذا كانت المشكلة تتعلق بأخي حسين فان لرفعت بك ابنا في مثل سنه ... ولكنه لم يفلح في الدراسة .. بل انحرف وضل السبيل ..

ورأيت ابي تلك الليلة ينظر الى سقف الحجرة في سهوم بعد ان انهى حديثه مع امي وهو يكثر من تنهداته المبتلة بدموع ذكريات الطريق الشاق الذي قاد فيه اسرته بلا عون من مال او صديق او قريب ... الا حماسه الذي يتفجر من ينابيع اعماقه نحو ابنائه ... ووظيفة بسيطة تعجـز كل نظريات علم الاقتصاد على ان تجعل مرتبه منها يسد النفقات الطائلة لاربعة ابناء ... يريد ان يعلمهم جميعا احسن تعليم ... ليكونوا احسن الخلق ... وليجنبهم ما عاناه هو من اضطهاد الوظيفة الصغـيرة واصفادها الجائرة .

ماذا كان يقرأ في سقف الحجرة تلك الليلة الا الخاتمة السعيدة لقصة صراع طويل .. قصة تحد وحرب مع اهل زوجته ... وخاصة رفعت بك؟ فقد كان رفعت بك هو النجم المتلالىء في سماء عائلتنا ... ولا عجب ان يخطف نوره البراق ابصار الاقارب جميعا ... فقد كان موظفا كبيرا بوزارة المعارف .. وكان ابي يلجأ اليه احيانا مضطرا ليساعده في مشكلة ما من مشاكلنا الكثيرة .

وكانت اخر مشكلة لجأ فيها اليه عندما التحق اخي بكلية الهندسة.. فذهب اليه ابي كي يساعده ليحصل اخي على المجانية.

في ذلك اليوم عاد ابي ثائرا يلعن ... وسر غضبه ونقمته ان رفعت بك لم يبد عدم رغبته في مساعدته فقط .. بل نظر اليه في تعال يقرب حد الاحتقار وقال له :

ـ أنا من رأيي يا عبد الحق انك تشوف له شغله ... اهو على الاقل يساعدك في تربية اخواته . ومتآخذنيش في دي الكلمة ... انـت حتكفيهم من اين ... ومن ناحية تانية الشهادات الجامعية اليومين دول مبقالهاش قيمة ...

ولكن ابي اصر على ان يمضي في طريقه الشاق . كان يحرم نفسـه من كل شيء كي لا يشمت لانهزامه رفعت بك المتعجرف .

ومنذ تلك الليلة وامي تنظر الى ابنها البكري الذي ذاقت في تربيته المر نظرة فخمة وقد اصبح في نظرها عظيما .. نعم فقد كان حسـين من دوننا صعب العلاج عنيدا ... مسرفا في طلباته ... يأخذ ما يريـد

عندما يريد حتى لو كان ذلك عسيرا على اب لاربعة ابناء يعمل موظفا بسيطا بمصلحة السكك الحديدية .

ومنذ ان اعلنت نتيجة الامتحان واسرتنا تعيش في دوامة من الافراح المختلطة بالاسى فقد ادركنا ان من المستحيل ان يجد اخي وظيفة في القاهرة ... وغاية ما كنا نحلم به ان يجد تلك الوظيفة في بلدة قريبة من القاهرة تمكنه من ان يأتي لزيارتنا ولو مرة كل شهر . ولكن حتى هذا الحلم البسيط ضاع عندما جاء اخي منذ ايام ليزف الينا والفرح يعصف به انه قد عين مهندسا في شركة للمقاولات ... وسيتسلم وظيفته اول الشهر القادم .

ومنذ ذلك اليوم ... ونحن نعد له الترتيبات ... والمح في عيني امي كيف يمكن ان تنقلب الافراح فجأة في قلبها الى مزيج من الاسى الخجول والحيرة الهادئة .

لم يكن هناك بد من ان يقبل ابي تلك الوظيفة .. فان العرض كان مغريا . واخيرا مرت السبعة الايام الباقية على حلول الشهر الجديد سريعة هازئة بدعوات امي الساذجة للتريث والبقاء ...

وها نحن نندفع رغم ارادتنا الى محطة السكة الحديد .. كقافلة مسلوبة الارادة ـ تدفعها من وراء ريح عاتية نحو باب الحديد .

وكان كل منا يحمل في يده قطعة من العفش ... اختي الصغيرة كانت تحمل حقيبة صغيرة فيها بعض الكتب والاوراق ... وانا تطوعت لحمل الحقيبة الكبيرة التي كادت ان تنفجر من الملابس التي بداخلها.. والتي لم نستطع ان نضع فيها البطانية الصوفية فلففناها حولها بحبل كبير . وابي المتعب كان مسرورا بحمل السلة الصغيرة التي وضعت فيها امي كل ما استطاعت ان تجهزه من زاد لعشاء اخي في القطار . فانه سيبيت الليلة فوق عجلاته ولن يصل كوم امبو قبل ست عشرة ساعة على الاقل ... كما قال ابي العليم باحوال القاطرات .

اما امي فكانت تحمل في قلبها هما مبهما كان يتجلى في كلماتها الحنون التي كانت تهمس بها في اذن اخي وهي توصيه ان يعتني بنفسه في غربته ... وان يسلك بما يرضى الله .. وان يحذر العقارب والثعابين التي سمعت ان بلاد الصعيد تحفل بها كثيرا . كان حسين في تلك اللحظة قد انقلب في نظرها الى طفلها البكري الذي حملته فوق صدرها وارضعته منذ اربعة وعشرين عاما ... ولم يكن شاربه الكث ولا ملامحه الخشنة تشفع له عندها وتطمئنها بانه قد اصبح رجلا.

وضمنا بعد لحظة سور المحطة ... واندفعت مجموعتنا الصغيرة بلا رغبة الى الداخل ... لم يكن هناك مفر من ان نواصل السير ... رغم ما كانت تحسه امي من رغبة مكتومة في العودة من حيث اتينا.

اما ابي فقد احسست وهو يسير مندفعا بلا ارادة ... ورأسه يرتفع الى اعلا كالمئذنة .... انه يدخل لاول مرة محطة باب الحديد مرفوع الرأس ... فقد امضى بين جدرانها ثلاثين عاما من عمره موظفا بسيطا .. اما الليلة فانه يدخلها في موكب نصره .. فهو ذاهب لتوديع ابنه الباشمهندس .

واحسست من خطواته المضطربة المتلعثمة ونظراته الفضولية التي كان يصوبها في كل اتجاه انه يريد ـ لولا الملامة ـ ان ينادي على كل من يعرفه ليقول للجميع ان ابنه البكري قد اصبح مهندسا .

وعند باب الدخول واتت ابي الفرصة .. فقد سمعته وانا غارق في تأمل المكان يحيي احد المودعين بحرارة لا اعهدها فيه :

ـ اهلا يا مبروك افندي ... اتفضل ..

ـ أيـــن ؟!

ومع ذلك فان مبروك افندي رد السلام في سرعة وذهب لحاله . وفقد ابي فرصة اطلاع واحد من الذين يعرفهم عن سر فرحه الكبير وكبرياءه. وظلت عيناه تمسحان المكان وتفحصان وجوه الناس بعظمة غامضة ... حتى قاربنا باب الرصيف .

بعد دقائق سيركب اخي القطار ... وسنظل نحن واقفين على رصيف المحطة ننظر اليه نظرات الوداع .

وكما توقعت لم يسألنا عامل الباب عن التذاكر .. فان لابي بقية من النفوذ ... ولو بحكم الثلاثين عاما التي افناها هنا . ثم اخذنا نشق طريقنا بين افواج التحيات العابرة التي لم تعط فرصة لابي كي يشفي غليله.

وكان ينتظرنا على الرصيف بعض اصدقاء اخي. لطفي.. وعبد السميع .. ومحمود وبعض الذين كانوا يترددون على اخي في البيت دون ان اعرفهم . كم كان اصدقاؤه كثيرين ، لن يجيئوا بعد الان الى بيتنا ويسهروا معه حتى قرب الفجر .. دون ان تفلح تهديدات امي الطيبة.. ولن يسببوا القلق لابي المتعب بكلامهم ومناقشاتهم وضحكاتهم القاقة الظامئة .

واخذوا يتحدثون معه بصخب وهم معنا على الرصيف حتى اختنقت كلمات امي وهمسات امي . قالوا له الكثير . نظر اليه لطفي في محبة وزمالة وقال :

ـ ابقى اكتبلنا يا حسين اول ما توصل.

فلاحفه محمود :

ـ عشان تشجعنا نكتبلك احنا كمان .

واخذوا يثرثرون ويضحكون ... وانتهز ابي فرصة هدوئهم لحظة

صدر حديثا

نزار قباني

شاعرا وإنسانا

دراسة وافية بقلم

محيي الدين صبحي

الثمن ليرتان لبنانيتان

دار الآداب ـ بيروت

فقال بابتسامة واثقة نقرأها دائما على شفتيه عندما يتكلم عن شـــيء يعرفـه جيدا :

ـ اعمل حسابك انك مش حتوصل قبل الساعة ١١ بكرة الصبح .... اذا ربنا ستر ومحصلش حاجة تعطله في السكة ... اصل الخط من بعد اسيوط مفرد .

وتدخل محمود مع ابي في الحديث فسأله :

ـ وعلى كدة يوصل اسيوط الساعة كام ؟!

ـ والله لو مشى على الميعاد ... يوصل الساعة ٣ صباحا .

وعلقت امي على كل هذا الخليط بدعواتها المشفقة وتنهداتها المألوفة.. وفمها الكريم لا يكف عن الدعوات .

ثم لمحت في الشباك المجاور من العربة شابا يركب مع زوجتهالجميلة والاهل يودعونهما .. ولكنه كان وداعا لحسين .. وتعلقت عيناي لحظـة بوجه الزوجة النضير وبسماتها التي كانت تتسع وتتلألأ بالسعادة . يبدو انهما عريسان ... وهي مسافرة مع زوجها الى عمله بالصعيد. وتمنيت في تلك اللحظة لو كانت لاخي زوجة مثلها تؤنس وحدة لياليه الفارغـة التي تنتظره هناك في البلدة البعيدة المقفرة .

ثم انتهز ابي فرصة انشغال اصدقاء اخي بالحديث مع بعضهم في مسألة ما ... فوضع في يده خلسة ورقة مالية من ذات العشرة جنيهات. واحسست من ملامح وجه ابي الداكنة وهو يعطيه النقود انه يريد ان يقول له الكثير . كم تعب حتى حصل ابي على هذه الجنيهات العشرة. كم اعيته الحيل الشريفة .. وكم لجأ الى الاصدقاء ومن بينهم عبـــد الرزاق افندي واخيرا اضطر ان يقبل ذهاب امي الى رفعت بك لتستدين المبلغ منه بعد ان اخذ في مقابله كمبيالة للسداد في وقت محدد ... وهو يعتذر اعتذارا ـ قبلته المرأة الطيبة ـ لان كثيرين من الاقارب قد خدعوه ولم يردوا ما اقترضوه ... فاقسم الا يعطي احدا الا بضمان .. ولا ترضي امي بحال ان يسقط يمينه .

كان لا بد ان ندبر المبلغ لاخي بأي ثمن حتى لو كان ذلك على حساب كرامة ابي ونظرة العائلة الينا جميعا . فان اخي لن يقبض مرتبه الا بعـد شهر . ولكن ابي لم يقل شيئا ... بل نظر اليه نظرة طويلة عميقة ... تعبر عن الكثير من تلك الكبرياء المختنقة التي كان يعانيها . وفهم اخي ما لم يرد ابي ان يقوله .. واجاب بنظرة شكر طويلة عميقة ... ولمحـت على تضاريس وجهة الصارم وعدا خشنا اكيدا انه سيجنب اسرتنا مثل هذه المواقف المحرجة . سيتكفل من الشهر القادم بكل العجز الذي تعانيه ميزانية اسرتنا الصغيرة . بل قرأت على وجهه الجاد تأكيدا حارا بانـه سيرتقي بهذه الاسرة .. وسينقلنا من الشقة البسيطة التي ضمت متاعبنا والامنا هذه الاعوام الماضية الى شقة اخرى كبيرة تدخلها الشمس ... فتطيب رجل اختي المريضة بلين العظام .. ويفرح فيها الصبـــاح بالبسمات والنور .

وسرح خاطري في الماضي القريب وما حفل من متاعب مرت بها اسرتنا منذ ان احيل ابي الى المعاش وزادت نفقات اخي بالجامعة .. ونفقاتي انا ... ومحاولات امي اليائسة لتدبير شئون هذا العالم الصغير المثقـل بمصروفات الجامعة ... وأثمان الكتب واللوحات الهندسية والملابس.. والسهر طول الليل . ومرض ابي العضال

وتوقفت خواطري لحظة وانا اتذكر مرضه الطويل الذي ارقده الفراش عامين كاملين لم ينم فيهما ليلة واحدة من الالم المجرم . لقد اسر الـــى الطبيب الذي كان يعالجه بمخاوفه من ان يكون ابي مريضا مرض الموت .. وان ليس هناك فائدة ... يقول هذا بعد ان يكون قد حصل على اجرة الكشف. وقال لي ايضا ضمن ما قال ان المرض اللئيم قد تأصل في جسده منذ خمسة اعوام ... وانه كان من الممكن في بدايته ان ينتصر عليه بحقنة واحدة .. ولكن ابي كعادته ... كابر وعاند الالم .. كي يوفر قروشا من اجلنا ..

كم كنت اسمعه يتمتم وهو يتأوه بالليل ناظرا الي وانا اعطيه الحقنة التي تخفف الالم :

ـ مش عاوز اموت قبل ما اشوفكم كويسين .

وعبثا كانت كلماتنا التي تفوح برائحة اليأس تطمئنه انه سيعيش .

ايام سوداء .. كنت اراها وانا اقف على رصيف المحطة صامتا كالجماد تترى امام ناظري كشريط سينمائي لشفاء يولى ظهره منكسرا ... ارى من خلال كآبته افراح الفجر المنتظر .

وانتهيت من خواطري المتخمة بالاحزان على نظرة متفائلة من حســين وهو ينظر الى ابي المتعب وكأنه يطمئنه باصرار :

ـ لن تعود هذه الايام يا ابي .. لن تعود .

وانقضت اللحظات الباقية دون ان احس وانا غارق في صمتـــي تمتصني تلك الذكريات الاكلة . كان لا بد ان تنقضي .. وان ينتزعني من اخر فقرة منها صوت جرس المحطة وهو يعلن في نغمة كئيبة قـرب قيام القطار . النذير .. لقد اوشك على الرحيل في ظلام الليـل. ورن صداه في الجو حاملا تيارا من الاحاسيس تجيش في اعماقنا ... ويذيب بقايا صور الماضي التعس من خاطري.

وكانت اختي الصغيرة اسرعنا في الاستجابة لتأثير هذا النذير . فقد سمعت صدرها يجهش ببكاء مر بعد ان احست ان القطار على وشـك الرحيل وانه سيأخذ حسين معه في جوف الليل . انها لا تريده ان يسافر . كان يحبها ويداعبها اكثر من اي فرد منا . انها تحس انهـــا ستفقد بذهابه شيئا غاليا . وحاولنا ان نسكتها ... وانشغلت امـي بتهدئتها بعض اللحظات عن رغبتها هي ايضا في البكاء .. واخيرا قال لها حسين :

ـ متعيطيش بقى يا نوسة ... انتي صغيرة واللا ايه ؟ .. انا حاسافر واجيلك بعد شهر ومعاي هدية كبيرة .

اما ابي فقد شعرت ان زهوه قد تطور الى دوار ... كأن مطرقـــة الجرس قد هوت على راسه .. وظل صامتا ينظر الى ابنه نظرات غامضة تفيض بالاستسلام .

واخيرا ... بكت امي . فاض بصمتها الكيل . كانت تريد ان تنفس عما بقلبها من جمر فلم تجد خيرا من دموعها الصريحة.. ولاول مرة رأيت اخي ينحني من شباك القطار ليطبع فوق رأسها الذي بدأ يشوبه البياض قبلة يتوج بها شقاءها المخلص معه لمدى اربعة وعشرين عاما .

وفجأة دوى رنين الجرس الثاني... كان الصدى قويا .. اكثر اصرارا من ذي قبل . وبعد لحظة انطلقت صفارة ولكن رنينها ضل واختـرق نسيج قلبي . وتابعها صوت وش البخار وهو ينصرف من محبســـه بالقاطرة . كأن القاطرة كانت تنفس هي الاخرى عما باعماقها من ضغط محتبس ... مثل صهر العواطف التي كنا نكتوي بها عندئذ .

واخذ القطار يتحرك .. كان يدا مجهولة عاتية اخذت تشده الى الامام رغم نظراتنا التي كانت تتشبث وتمسك باصرار يائس بوجه اخـي وهو يغيب معه في زحام المودعين .. ونحن نلوح له بايدينـــا ... ونسمعه من حناجرنا المجروحة كلمات وداع.. وامنيات بسلامة الوصول.

وسرنا وراء القطار نجر اذيالنا في خيبة حتى باب الرصيف . وعند الفناء الخارجي ودعنا لطفي ومحمود وعبد السميع وذهبوا لحالهم ... وسرت بجوار امي وابي صامتا . ولكن ابي مزق الصمت ونحن نصعد كوبري شبرا في اتجاهنا الى المنزل وقال لي وهو يربت على كتفي بخشونة جمعت بين الاستياء والحنان :

ـ شد حيلك انت كمان ... عشان تتخرج زي اخوك .

كانت كلماته تفوح برائحة الامل المرهق وهو يطلب مني ان اريحه انا ايضا من متاعبي وان اجتهد في دراستي هذا العام ... ووجدتني لا اعرف كيف اجيب بل ظللت انقل معه الخطى في غير تردد وانا اشعر ان احاسيس الليلة وامنياتها كلها قد انعقدت علي وحدي.

ودخلنا المنزل . كان ضوء المصباح الخافت في الردهة يهمس في ملل ... المكان كله كان يبدو شاحبا تنقصه الحيوية .... لم اعهده من قبل بمثل هذه الكآبة والصمت ... فكم سمعت هذه الجدران صراخه العالي وكلماته التي كانت لا تخلو احيانا من الوقاحة عندما كان يشتط في طلب شيء ولا تستطيع امي ان تلبيه .. اما الان ..

ودخلت حجرتي .. كانت هي الاخرى فارغة ... واحسست انني اشم رائحته في كل قطعة من اثاثها ... وانا اتجه في تخاذل لاجلس على المكتب .. كنت اراه امامي ... فكم شاركني في الماضي الجلوس هنا ليالي طويلة .. هي سجل شبابنا المتخم باحلام ظامئة ... ثم اخذت كلمات ابي ترن في اذني وتهيب بي ان اجتهد ورغم اننا كنا لا زلنا في بداية العام الدراسي.. الا انني شعرت انني يجب ان اذاكر .. ان انجح هذا العام .. واحقق امنية ابي.. يجب .. يجب .

وانقضى اغلب الليل . لم اعهد في نفسي حماسا مثل هذا من قبل ... كنت لا احس باللحظات وهي تمضي منطلقة بي الى الغد ... وانا غارق في دروسي .. كنت اقاوم التعب والرغبة في النوم كمن يصارع غريما وهو يشتغل بالارادة والعزم .

واقتربت الساعة من الثالثة صباحا ... فاحسست ان قواي تضمحل ... فقمت من حجرتي وانا اشعر بشيء من الرضا . يجب ان اداوم على هذا كل ليلة .. لن اذهب غدا مع صديقي احمد الى سينما مترو كما وعدته .. وكما تعودنا مساء كل خميس ... ولن التحق هذا العام بفريق التمثيل بالكلية .. ولن .. ولن .

ودخلت حجرة النوم .. وسمعت انفاسهم تتردد في رتابة .. ورأيت ابتسامة تطلى وجه ابي وهو غارق في النوم .. ابتسامة تنسى بانه قد اسلم ابنه حسين لعناية الله واطمأن .. اما اختي فكانت هي الاخرى تبتسم وكأنها تحلم بالهدية التي ستأتيها بعد شهر كما وعدها حسين فتزهو بها على اطفال الجيران .

واذ كنت على وشك ان اصعد الى فراشي واطفيء النور ... وجدت امي تتقلب على ظهرها، واذ احست انني ما زلت يقظا قامت من رقدتها وسألتني وهي تفرك عينيها :

ـ أنت لسه صاحي يا ابني ؟!.

ـ أيوه يا ماما ..

ـ هي الساعة بقت كام دلوقتي ؟!..

ـ ثلاثة وزيادة ..

ـ يعني تفتكر وصل اسيوط ؟!

القاهرة — فتحي زكي

الآداب

مجلة شهرية تعنى بشؤون الفكر

بيروت

ص.ب ٤١٢٣ ـ تلفون ٣٢٨٣٢

★

الادارة

شارع سوريا ـ راس الخندق الغميق ، بناية الاسمر

★

الاشتراكات

في لبنان وسوريا : ١٢ ليرة

في الخارج : جنيهان استرلينيان
او ٥ دولارات

في اميركا : ١٠ دولارات
في الارجنتين : ١٥٠ ريالا

الاشتراكات الرسمية : ٢٥ ل.ل. او ما يعادلها

تدفع قيمة الاشتراك مقدما

حوالة مصرفية او بريدية

★

الاعلانات

يتفق بشأنها مع الادارة

★

توجه المراسلات الى

مجلة الآداب ، بيروت ص.ب. ٤١٢٣